من تراب الطريق ! (٦٩٨) صداقة السراب (*)

يبدو أنه كان لا بد أن تمضى سنون ، وأن أشيخ ، قبل أن أعرف أن الصداقة أحيانًا كالسراب ، وجودها خيال ، وعمقها ضحل ، والوفاء فيها ـ من البعض ـ محال !

لست أعانق بهذا تشاؤمات التوحيدى فى كتابه عن « **الصداقة والصديق** » ـ ولا وصفه للدنيا بأنها امتلأت بالذئاب ، ولا قوله إن الصداقة ـ للأسف ـ مشوبة من الأزل بالحسد ، مكدرة بالحقد مهددة دائمًا بالخيانة . فليست كل الصداقات ولا الأصدقاء سواء ، حتى توصف بأنها **دائمًا** مهددة بالخيانة .

نعم ، تحدث الخيانات ، ويصاب الإنسان بالإحباط فى بعض الصداقات، ولكن ظنى أن المشكلة ليست فى الصداقة ذاتها ، فهى المحبة والوفاء والصفاء ، وإنما فى العجلة فى اعتبار « **العلاقة** » صداقة ، مع أنها قد تكون وقد لا تكون . فليس كل ما يصادفه المرء ، وتقذف به المصادفات ، من علاقات وصلات ينطوى فى جوهره على « **صداقة** » ، وإنما قد يكون الظن بوجودها هو « **السراب** » .. وهنا قد نقترب من منطق التوحيدى ، ونفهم لماذا تتعدد الخيانات ، ولكن ليس من الأصدقاء ، وإنما من المظنون ـ انخداعًا ـ أنهم أصدقاء !

(*) المال فى ٥ /٨/ ٢٠١٤

دائمًا لكل شيء وجهه الآخر ، فمن فوائد اكتشاف الخيانة التى تمض وتوجع ، أن ترفع من صفحة وجدانك من ظننته صديقًا ، وهو ليس بصديق، وأن تنتبه إلى الواقف جنبك ، فقد تكون عنايته بطعن ظهرك وهو يتظاهر بأنه معك وإلى جوارك ، فمن أبلغ فوائد كشف الخيانة أن كشفها الذى أمضّ وأوجع ، قد أتاح لك أن تنحى من حياتك من توسمت فيه إخلاص الصداقة ومحبة الصديق ، فاستبان أن ما توسمته غير صحيح ، وأن الصدر مطوى على غير ما ظننت ، فلك إذن أن تحمد الله الذى عافاك وأبعد عن طريقك من كنت تظنه صديقًا ، فإذا به مطوى على الكره والمقت والغيرة والحسد والغدر ، يظهر لك غير ما يبطن ، ويصانع ولا يخلص ، ويرائى ولا يصدق ، ويخادع ولا ينصح ، ويتحين الفرص لطعنك فى ظهرك دون أن يهتز له رمش !

نعم ، الصداقة الحقيقية عزيزة ، ونادرة . وهذا ما يمكن الاقتراب فيه من منطق التوحيدى حين قال : « من أطول الناس سفرًا ، من سافر فى طلب الصديق ! » .

وحين نتعمق ، نجد أن التشاؤم جاء من الخلط والتخليط بين الصداقة وما يُظن أنه صداقة ، وهو ليس بصداقة .. لذلك قيل إن معظم الملوك والحكام لا صداقة ولا صديق لهم ، فأمورهم جارية على توابع السلطان من القدرة والغلبة والهوى والمحبب والمبغض والاستحلاء والاستخفاف ، وهذه وتلك أبعد ما تكون عن الصداقة . وهذا هو حال « **البطانات** » ، فهى من الخدم والأولياء ـ مهما علت مناصبهم إلاَّ من ندر .. وهى محكومة

بالطاعة والصدوع والنفاق والرياء والمصانعة ، وهذه خصال لا تنتج صداقة، ولا مجال لها ـ حقيقةً ـ بين الأصدقاء . لذلك لم تصح للملوك والحكام المستبدين أحكام فى الصداقة وآصرتها ومعناها .

أما أصحاب الضياع والإقطاعيات وثروات المليارات فى العصر الحديث، فليس لهم ـ كما صدق التوحيدى ـ عير ولا نفير فى الصداقة ، كذلك غلاة التجار المشغولون بالتربح الذى يسد بينهم وبين المروءة ، ويحجزهم عن المشاعر الإنسانية التى تولد الصداقة وترعاها . وقد تعز الصداقة بل كثيرًا للأسف ما تعز ، بين الكتاب وأهل العلم ، لأن الغيرة والتحاسد والتمارى والخصومات ، تذهب بالصداقات وتستبدلها بالمصانعات !

فهل حقيقة ما يقوله التوحيدى من أنه « **لا صديق ولا من يشبه الصديق** » ؟!

لا أعتقد أن هذا صحيح على إطلاقه !

الصديق موجود ، ولكنه عزيز ونادر !

أما أشباه الأصدقاء فهم كُثْر ، الذين يتشبهون بالأصدقاء ، ولا صداقة لهم !

يقال إن الكريم يخلص الود فى اللقاء وفى الغيبة ، وإن اللئيم يصبر على إخفاء ما بنفسه من مقت وكراهية وحسد وبغضاء !

ظنى أن البوصلة تخطئ حين تظن اللئيم كريمًا ، فتتخذه صديقًا فيطعن فى الظهر ويخون ، ولكن العيب فى عدم التشخيص وانحراف بوصلة التقييم ، وخطأ « التصنيف » ـ لا فى الصداقة .

من لنا بمثل من قال فيه العنابى لأحد أصحابه : « ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوّة ، كامل المروءة ، إذا غبت خلفك ، وإذا حضرت أعانك ، وإذا بكرت عرفك ، وإذا جفوت لاطفك ، وإذا سابقت كافأك ، وإذا لقى صديقًا استزاده لك ، وإن لقى عدوك كف عنك شرَّه ، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا ناجيته استرحت ؟ » .

قد تخطئ البوصلة أحيانًا ، ويخطئ التصنيف أحيانًا ، ويصيب النفس مرارة الغدر والخيانة فى كثير من الأحيان .. ولكن هذا وذاك لا ينبغى أن يسود صفحة النفس ، ولا أن يفشى التشاؤم .. فلا تزال الدنيا عامرة بأصدقاء خلصاء ، محبتهم صافية ، ووفاؤهم نادر وعزيز ، فيهم الخير والبركة ، والعوض عن الخيانات والخونة ، الذين ذهبوا بغدرهم إلى حيث ألقت !

* * *